الفصل الأول

أهمية دراسة الأسرة

أهمية دراسة الأسرة:

ترجع أهمية دراسة الأسرة إلى ما تحتله من مكانة وأهمية فى المجتمع الإنسانى ، بل ومن تواجدها – فى حد ذاته – منذ بدء حياة الإنسان على الأرض واستمرارها على مر التاريخ والحضارات ، وتقوم الأسرة بوظائف أساسية فى حياة كل من الفرد والجماعة وإن اختلفت هذه الوظائف أو اختلف شكل الأسرة باختلاف المجتمعات والعصور .

ولقد زاد الاهتمام بدراسة الأسرة خلال العقود القليلة الماضية ، لعوامل وأسباب متعددة ، منها الاعتقاد بأن النموذج الأساسى لتكوين الشخصية يتشكل خلال السنوات الأولى من حياة الفرد ، وأن الأسرة هى أول مهندس يضع تصميم لهذا النموذج .

ويرتكز هذا الاعتقاد على ما ذهب إليه بعض علماء التحليل النفسى من أهمية العلاقة بين الوالدين والطفل خلال المراحل المبكرة من حياة الطفل وتأثيرها البالغ على السلوك والشخصية ، وقد أشارت بعض الدراسات إلى أن حالات المرض العقلى ترجع أسبابها إلى الخبرات المبكرة فى حياة الفرد .

واحتلت الأسرة جانبا من الدراسة والاهتمام فى علم النفس والاجتماع باعتبارها سبباً أساسياً من أسباب الجناح والفصام والانحراف وغير ذلك من اضطرابات الشخصية ، كما احتلت دراستها نفس الاهتمام وذلك لعلاقتها بنمو الشخصية وخصائصها وبالنمو العقلى والتحصيل الدراسى والثبات الانفعالى ، وتأثيرها على سلوك أفراد الأسرة بصفة عامة (فتحى عبد الرحيم وحامد الفقى ، ١٩٨٠) .

أشكال الأسرة:

برغم التغيرات والتطورات التى تطرأ على المجتمعات الإنسانية على مر التاريخ وعبر الثقافات المختلفة ، فإن هناك شكلاً من أشكال الأسرة يكون البناء الأساسى لكل مجتمع من المجتمعات الإنسانية ، فنجد فى مجتمعنا العربى سيادة النمط النووى من الأسرة وبروزه ، وتراجع النمط الممتد . وقد أدى هذه التحول البنائى من النمط الأسرى الممتد إلى النمط النووى إلى إقامة علاقات أقل بين الأقارب. وترجع

بعض الأسر ذلك إلى البعد المكانى والانشغال فى الحياة المعيشية (عبد الهادى قريطم وآخرون ، ١٩٨١) ، كما أصبح اختيار العلاقات الاجتماعية قائماً على الاستلطاف والميل الشخصى وليس على علاقات المصاهرة أو العلاقات القرابية الدموية (زهير حطب ، ١٩٨٠) .

وقد نجد ظاهرة تعدد الزوجات والتى تأخذ شكل التعدد المتتالى زمنياً – فى الغرب – والتعدد المتوازى أى فى نفس الفترة الزمنية – فى الشرق – وهذه الأسر قليلة الانتشار فى العالم العربى (حتى فى العالم الإسلامى رغم أنها مباحة دينياً واجتماعياً) ، والشكل الغالب للأسرة العربية هو الزوج الواحد مع الزوجة الواحدة والأبناء منهما (الأسرة النووية أو الأسرة النواة) ، كما قد لا نجد للأسرة العربية كيانا مستقلا وإنما هى جزء من أسرة ممتدة عرضاً أو طولاً ، أى تجمع الأشقاء وأولاد الأعمام فى الامتداد عرضاً وتجمع الجد وأبنائه وأحفاده فى الامتداد طولاً فهى بذلك تتكون من ثلاثة أجيال أو أكثر (الأسرة الممتدة) (جعفر الياسين ، ١٩٨١ وعبد المجيد منصور ، ١٩٨٧ ، ومحمد شعلان ، ١٩٧٨) . وفى الآونة الأخيرة ظهرت الأسر ذات الأب الواحد وهى الأسر التى يغيب فيها أحد الوالدين نتيجة للموت أو الطلاق أو السفر ويكون الوالد الآخر هو المسئول عن رعاية الأسرة .

ومن أشكال الأسرة أيضاً الأسرة الأمومية وفيها تعتبر الأم القوة المسيطرة وهى أسرة أمومية النسب والإقامة ، والأسرة الأبوية وفيها يعتبر الأب رئيساً ومركز القوة وسلطته ذات طبيعة مطلقة ونهائية ، والأسرة المركبة وهى التى تتكون من أسرتين أو أكثر من الأسر الفردية ، والأسرة المتسعة وهى أسرة زواجية يعيش فيها قريب غير متزوج مثل الأخ أو الأخت أو ابن العم أو ابن الخال ، وأسرة التوجيه وهى الأسرة التى يولد فيها الفرد ويتلقى داخل إطارها تنشئته الاجتماعية (عبد المجيد منصور ، ١٩٨٧) .

وما سبق يوضح التصنيف العلمى للأسرة من ناحية الشكل ، بينما نجد أن تعريف المصريين للأسرة قد يأخذ عدة أشكال أخرى ، فقد يشير فلاح مصرى بيده إلى مجموعة من العاملين على جمع محصوله قائلاً: "هؤلاء أسرتى" ، فنجد تعريفه

للأسرة فى هذه الحالة قائماً على محك فعال فهو يفكر فى الأسرة كجماعة عمل اقتصادية وبذلك يستبعد بعضا من علاقات الدم .

أو قد نجد أرملة وابنها الذى يعمل يعيشان معاً ويريان أنها أسرة صغيرة يتحقق لها الأمان الجسدى والمادى وأيضاً إتمام مسئوليات المنزل ، وبذلك يتحدد التعريف الإجرائى للأسرة لدى المصريين تبعاً للعوامل التى تلعب دوراً فعالاً بالنسبة لهم كالدم ومكان الإقامة وغيرها ، بحيث يسمح هذا التعريف بتحقيق الاحتياجات الجديدة والقديمة للأفراد بطريقة أفضل وأكثر مرونة (Rugh , 1985) .

وترى الكاتبة أن وسائل الاتصال الحديثة من إنترنت وتليفونات محمولة وغيرها تسهم فى إقامة الأفراد لعلاقات حميمة مع أفراد آخرين خارج نطاق أسرهم ، وهى علاقات قد تماثل فى قربها ودفئها وقوتها العلاقات الأسرية ، وكأن الأسرة أصبحت تجمع أفراداً هم من خارج الأسرة وتستبعد بعضاً من أعضاء الأسرة . ومن جانب آخر سمحت وسائل الاتصال هذه بتقارب العلاقات بالأسرة الممتدة برغم التباعد المكانى بين أفرادها . فى حين يرى محمد النابلسى (٢٠٠١) أنه على الرغم من التغيرات التى طالت هيكلية الأسرة العربية فإنها لا تزل محتفظة بدورها الوظيفى لمختلف الخلايا الاجتماعية . وأنه بغض النظر عن تطور وسائل الاتصال والانفتاح على العالم الخارجى فإن الثوابت الوظيفية لدور الأسرة لا تزال على حالها .

وظائف الأسرة :

١- تنظيم العلاقات العاطفية والجنسية لأفرادها .

إذا بدأنا بأساس الأسرة وهو التقاء رجل وامرأة بغرض ممارسة علاقة جنسية وعاطفية مستقرة نجد أن الأسرة تخلق المجال لمثل هذه العلاقة .

فالإشباع الجنسى بين الزوجين ليس لذة جسدية قصيرة الأمد لكنه متعة نفسية طويلة الأمد تسعد الزوجين وتجعل كل منهما يسكن إلى الآخر ويطمئن إليه ، كما تحقق الأسرة أيضاً العواطف الأبوية والأمومة والأخوة وما إليها (محمد شعلان ، ١٩٧٨ ، كمال مرسى ، ١٩٨٨ ، ١٩٩١) .

٢- إنجاب الأطفال ورعايتهم :

حينما يأتى الطفل الوليد إلى الدنيا لا تكون لديه القدرة على مواجهة متطلبات

حياته ، فهو لا يدرك وجوده ، ولا يستطيع أن يعبر عما يحس به تعبيراً كافياً لمعاونته والتجاوب معه ، فالوليد البشرى على هذا النحو يكون غير قادر على الاستمرار فى الحياة أو الحفاظ عليها إلا إذا رعاه الآخرون وأضفوا عليه الكثير من صنوف الحماية والوقاية وتلبية حاجاته الأساسية التى لا يتحقق له العيش بدونها على الوجه الأكمل (السيد المخزنجى ، ١٩٩٣) ، وهنا يظهر دور الوالدين والأسرة إذ لا تزال مهمة الأسرة الأولية تربية الأطفال ، ففى الأسرة ينمى الطفل هويته ويتعلم كيفية التعامل مع الآخرين ومع السلطة ، فالأسرة هى مصدر العادات والعرف والتقاليد وقواعد السلوك والآداب العامة ، وكذلك مصدر القيم الأخلاقية والدينية ، وحينما يدخل الطفل المدرسة يتعلم أن يطبق ما تعلمه داخل أسرته مع آخرين خارج نطاق الأسرة ، فيقيم ارتباطات خارج أسرته ويوازن بين رغباته والضغوط الواقعة عليه ، وبمرور الوقت يجد الطفل طريقة الاستقلال والاعتماد على النفس (السيد المخزنجى ، 1993 ، Norgard , 1983 DiNicola , 1985 , Mayholl and).

٣- المصالح الاقتصادية :

إذا كانت الغريزة الجنسية قد نجحت فى جذب اثنين لفترة قصيرة والعلاقة العاطفية نجحت فى إطالة هذه المدة ، وكان إنجاب طفل قد زود هذه المدة لتشمل على الأقل الفترة الحرجة التى يحتاج فيها الطفل إلى رعاية مستقرة من أبويه ، فإن المصالح الاقتصادية المشتركة تضفى جانباً من الاستقرار إلى العلاقة الأسرية . بل أن هذه المصالح قد تسهم فى اتزان العلاقة الزوجية واسمرارها حتى وإن كانت العلاقة العاطفية بين الزوجين ضعيفة (محمود الزيادى ، 1987 – 1991 , Heaton & Alhrecht) .

٤- الأمان :

من أهم الوظائف النفسية والاجتماعية للأسرة وأكثرها حيوية توفير الأمن واستقرار والحماية وتحقيق التكامل النفسى للأطفال ، وحماية الاتزان الانفعالى للراشدين ، فتعطى الأسرة لأفرادها الأمان والحماية من ضغوط الحياة ومن الأخطار الخارجية (حيدر البصرى ، 2001 ، Mayholl & Norgard , 1983) ، والعلاقة الزوجية الدافئة والمتزنة تشعر الزوجان بالانتماء إلى بعضهما البعض

وبالتقدير العال للذات مما يزيد الشعور بالأمان والراحة ويخفف من ضغوط العمل والمسئوليات الأخرى بل ويقلل من فرص الإصابة الاضطرابات النفسية ، كما أن السعادة الزوجية ترتبط بالسعادة العامة فى الحياة أكثر من عوامل أخرى (Bouman , 1990 ; Halfort , et al , 1999 , Henggeler & Borduin , 1990).

الأسرة والمجتمع :

تمثل الأسرة الواحدة الاجتماعية الأساسية فى المجتمع ، وكلما كانت العلاقات الأسرية والتماسك الأسرى بين أعضاء الأسرة كبيراً ، كلما أدى ذلك – إلى علاقات وروابط وضوابط اجتماعية سليمة بين أفرادها فى تعاملهم داخل الأسرة وفى المجتمع الأكبر .

والأسرة هى المؤسسة التربوية الأولى فى المجتمع والتى ترعى أبنائها وتعمل على تنشئتهم وتطبيعهم اجتماعياً عن طريق ما يعرف بالتنشئة الاجتماعية.

وتتوافق النظم والعلاقات والضوابط الاجتماعية السائدة فى المجتمع – بدرجة ما – مع النظم والعلاقات والضوابط الاجتماعية داخل الأسرة الواحدة التى يسودها التماسك والترابط الأسرى ، ذلك تعتبر الأسرة أولى المؤسسات الاجتماعية ذات الدور الفعال المستمر فى تنشئة أفرادها تنشئة اجتماعية متوافقة أو غير متوافقة مع الأنظمة العامة للمجتمع (عبد المجيد منصور ، ١٩٨٧) .

وإذا كانت الأسرة هى البنيان الأساسى للمجتمع بل هى مجتمع مصغر فى حد ذاته مستقل وفعال ومؤثر على المجتمع بقدر ما يتأثر به ... فإن الأسرة المتطرفة فى استقلالها والتى ترفض التأثر بالمجتمع الذى توجد فيه تنتهى بالعزلة عن المجتمع وبالتالى تفقد فاعليتها الحقيقية . بينما النقيض الآخر نجده فى الأسرة الشديدة التوافق مع المجتمع والتى لا تعدو أن تكون مرآة لما يدور فيه هى الأخرى تفقد فاعليتها واستقلالها على السواء ... وفى الوسط نجد الأسرة التى تسعى للحفاظ على تقاليدها فى المجتمع الجديد دون أن تترك ذلك يعرضها للعزلة، فتمارسها

بدرجة من المرونة وتفاعلها مع المجتمع الأوسع يجعلها تتأثر به بالإضافة إلى ذلك قد تؤثر عليه .

وإذا كانت التغيرات التى مرت بها الأسرة فى كثير من المجتمعات قد أثرت على كثير من الوظائف الأسرية حيث انتقل بعضها إلى مؤسسات أخرى كالوظيفة الاقتصادية مثلاً ، إلا أن الأسرة ما زالت فى المجتمعات نظاماً أساسياً يحقق أغراضاً حيوية بالنسبة للمجتمع (إبراهيم مرعى ، ١٩٨٢) منها تنظيم عملية الإنجاب والتنشئة الاجتماعية للأفراد الجدد ورعاية أطفال الأسرة مادياً و عاطفياً..

كما تعد الأسرة بالنسبة للطفل موصلاً جيداً لثقافة المجتمع وتشارك بطريقة مباشرة فى عدد من الثقافات الفرعية ، وشبكات العلاقات الاجتماعية التى تعتمد إحداها على مكانة الطبقة الاجتماعية ، وتعتمد الثانية على العضوية فى جماعة عرفية ، كما تعتمد أخرى فى بعض الأحيان إما على المهن أو المصالح... إلخ (السيد المخزنى ، ١٩٩٣) .

دورة حياة الأسرة:

يشير هذا المصطلح إلى تتابع الأحداث التى تمر بأسرة معينة منذ قيام الزواج حتى وفاة الزوجين ، وما يحدث خلال هذه الفترة – طالت أم قصرت – من ميلاد طفل جديد أو زواج الأبناء ، وكذلك العمليات والمناسبات المختلفة التى يواجهها وتربية الأطفال وتنشئتهم هذا إلى جانب الظروف العديدة التى تصاحب سن الشيخوخة (عبد المجيد منصور ، ١٩٨٧).

* * *

ويوضح الرسم التالى مثالاً للأحداث التى تمر بمعظم الأسر :

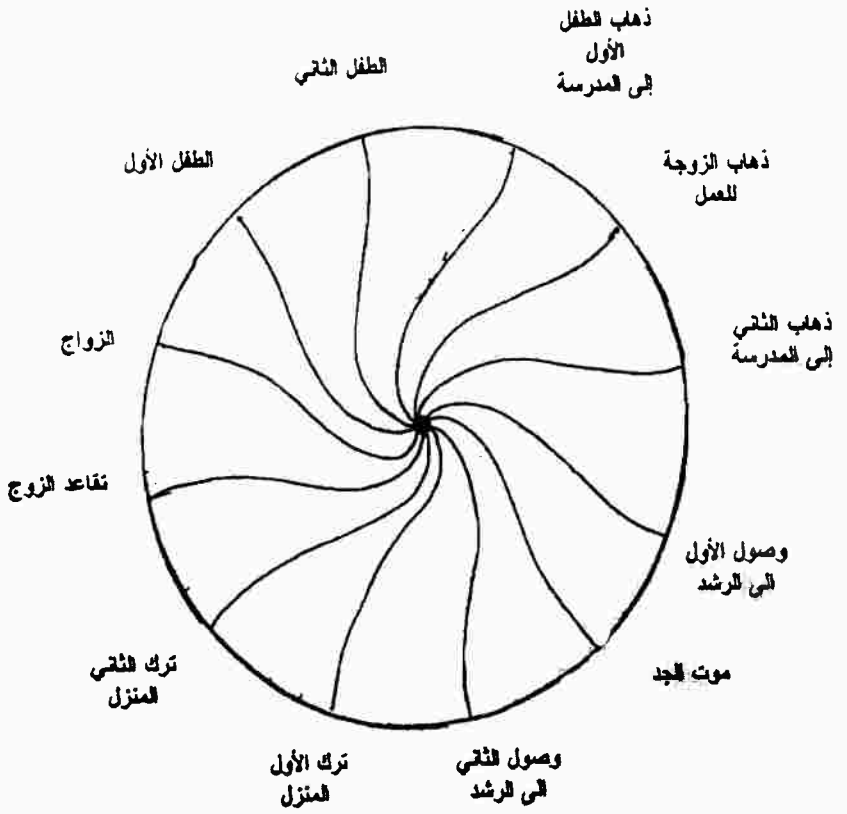

دورة حياة الأسرة

(Mayholl & Norgard , 1983)

وعلى مر دور الحياة تتغير العلاقات والأدوار الزوجية ، ومع تقدم العمر تقل الجاذبية الجسمية للزوجين وتقل إمكانياتهما الكامنة مما يقلل من احتمال حدوث طلاق وإيجاد بديل لهذه العلاقة الزوجية ويسمح باستمرار دور حياة الأسرة ومن ناحية أخرى كلما زاد طول الفترة التى يقضيها الزوجان معاً- تراكمت الخبرات المشتركة بينهما . وقد تعتبر الخبرة والألفة – على المدى الطويل – حاجزاً يعوق الطلاق حتى إذا كانت هذه الخبرات فى بعض الأحيان غير إيجابية (Heaton & Albrecht , 1991) .

الأسرة السوية والأسرة المريضة :

لكل أسرة خصائص تميزها وسمات تخصها مما يجعل لها هوية تختلف عن غيرها من السر ، إلا أن هناك مجموعة من الخصائص التى حيثما تتواجد فى الأسرة تجعلنا نطلق عليها مصطلح أسر مريضة .

الأسرة السوية :

ويطلق عليها الأسرة الصحيحة أو الصحية أو الأسرة الفعالة فى وظيفتها وهى الأسرة التى تشبع حاجات مختلف أفرادها ، فقد يرغب الوالد فى أن يبقى أولاده فى البيت فى مناسبة عيد مثلا مع زوجته ومعه ، وهذا الشعور يناسب هدفه فى أن تحقق الأسرة التقارب فيما بينها . غير أن أحد أبنائه (س) يود أن يمضى العيد مع أصدقائه ، وتود ابنتاه أن يقضيا العيد مع جدتهما لأمهما وتؤديهما الأم (زوجته) فى ذلك .

هنا يبدو أن أهداف الأب والأم والابن والبنات متعارضة أى أنها فى صراع – وحلهم لمثل هذه الاختلافات سيؤدى إلى الإجابة على السؤال المتصل بأداء الأسرة. فالأسرة الصحيحة أو ذات الأداء السليم يمكنها أن توفق بين رغبات وأهداف أفرادها . فى حين أن الأسرة المعتلة الوظيفة لا يمكنها أن تجرى مثل هذا التوفيق (محمد الشناوى ، ١٩٩٤) ، وإجمالاً فإن الأسرة السوية هى أسرة تتسم

لعلاقات بين أفرادها بالنضج والإشباع المتبادل ، هى أسرة يكون التواصل بين أعضائها صريحاً ومباشراً وواضحاً ، هى أسرة لديها قواعد ظاهرة وغير ظاهرة بأن العنف غير مسموح به داخل بناء الأسرة ،أسرة تتقبل التغيير والضغط كجزء من الحياة مع وجود أدوار تتفق مع إمكانيات الأفراد ووجود توازن أسرى يتسم بأنه سوى (داليا مؤمن ، ١٩٩٧) وبذلك تختلف الأسرة السوية اختلافاً جوهرياً عن الأسرة المريضة. وسنعرض فيما يلى للأسرة المترابطة كى يتضح لنا مفهوم الأسرة السوية .

الأسرة المترابطة :

تتميز كل الجماعات بقدر كبير من التماسك ، إذ إن هذا التماسك يشعر الأعضاء بالانتماء ، ويكون للجماعة قيمة تتطلب الولاء وتشجع على تكوين الصداقات . وهم يكونون الصداقات للعمل معاً وتحمل مسئولية وتحقيق الأهداف العامة ، وتحمل قدر من الإحباط للحفاظ على تكامل الجماعة (كمال مرسى ، ١٩٩١) .

ويتحدد التماسك الأسرى بمدى اهتمام أعضاء الأسرة بها ومدى ارتباطهم ببعض ومدى ما لدى كل منهم من استعداد لمساعدة وتعضيد الآخرين فى الأسرة (فتحي عبد الرحيم وحامد الفقى ، ١٩٨٠) .

"وتتميز الأسرة السوية عادة بالتماسك ؛ لأنها تشبع أكبر عدد من حاجات الفرد ومن الطبيعى أن يتمسك بها الطفل كجماعة نفسية ، وتنشأ معهما استجابات الطفل بما فى ذلك تصوراته أو اتجاهاته ومعتقداته وعاداته ، ولكى تقوم الأسرة بدورها ينبغى أن توفر الحب والأمن ، ومعيار النجاح أن يستغنى الطفل عن والديه حين يكبر" (كمال مرسى ، ١٩٩٨).

ويعتبر التماسك الأسرى عظيماً إذا كان هناك شعور قوى بالحنين بين أعضاء الأسرة فيذكر فرد جيد الانتماء لأسرة عند استجابته على اختبار لتكملة الجمل (الأسرة بالنسبة لى كل حياتى – وجودى مع أسرتى يجعلهم مطمئنين – فى البيت أجد نفسى – عندما تبتعد عنى أسرتى أشعر بالضياع) . وتعنى هذه الاستجابات الإحساس بالانتماء والشعور بالراحة والإحساس بالمكانة وبقيمة أسرته فى حياته ،

ويعتبر التماسك الأسرى متوسطاً إذا انسحب أحد الوالدين من محيط الأسرة وفى نفس الوقت احتفظ الوالد الآخر والأطفال بروابط دافئة قوية ، ويعتبر غائباً إذا أصبحت الاهتمامات الشخصية تفوق الاهتمامات الجماعية بينهم ، فمثلاً كانت استجابات فرد ضعيف الانتماء لأسرته كالتالى (تعودت فى البيت عدم الجلوس كثيراً – فى المنزل أشعر أنى إنسان غريب فى بيتى – وجودى مع أسرتى شيء لحين الاستقلال منه – فى البيت أفضل الانطواء على نفسى – عندما تبتعد عنى أسرتى أشعر براحة النفس والهدوء) . وتعنى هذه الاستجابات الإحساس بالغربة وعدم الانتماء وعدم القدرة على التفاعل الإيجابي مع أعضاء الأسرة (إلهامي عبد العزيز ، ١٩٨٧) .

من الممكن أن يرتبط نقص التماسك الأسرى بعوامل عدة ، منها الشعور بعدم الأمن وظهور العصابية كما يؤدى إلى الإحساس بعدم الراحة وإلى اتخاذ مواقف دفاعية وعدم الواقعية وظهور الصراعات العاطفية ، وقد ينعكس على الطفل فيصبح أكثر عرضة للتبول اللاإرادي واضطراب النمو الجنسى (Shelodon & Cluech , 1962) .

وفى دراسة أجريت على عينة تتكون من إحدى وخمسين بنتاً جانحة ومن خلال المقابلة وبيانات التقرير الذاتى تبين وجود علاقة سالبة بين العدوانية والتماسك الأسرى (Nowinshi , 1992) .

ومن جانب آخر ومن وجهة النظر الناتجة عن الخبرة الإكلينيكية بالعلاج الأسرى فإن على المعالج الأسرى ألا يقوم بتصنيف وظائف وأغراض السلوك إلى حسن ورديء ، فلا ينظر مثلاً إلى القرب (الألفة أو الانفتاح على الآخر) كشيء حسن بشكل عام بينما الاستقلال (البعد أو الانغلاق) كشيء رديء ، فالإغراق الشديد فى العطاء قد يؤدى إلى الالتصاق أو الاندماج ولكن بشكل غير تكيفى أو بشكل يعطل التكيف السوى الذى قد يؤدى إلى سلوك فصامى وفقر فى الإحساس بالهوية ... فاستمرار العلاقة التكافلية بين الأم – الطفل لابد وأن يكون قوامها التزييف والتضليل لحاجات الطفل ورغباته عن طريق إحلال الأم لحاجاتها

ورغباتها ونزعاتها محل حاجات ورغبات الطفل فيزيد ذلك من الإحساس بالحاجة إلى الاعتماد الوهمى كل على الآخر والخوف من الجانبين من الانفصال (صالح حزين ، ١٩٩٥).

الأسرة المريضة :

حينما نستخدم مصطلح الأسرة المريضة أو المعتلة الوظيفة فإننا نقصد به أن هناك طابعا مرضيا عاما تعانى منه الأسرة ككل ، فهناك أنماط معينة من التفاعلات الجامدة واللاسوية تصبغ هذه الأسرة ، بل قد نجد نوعا معينا من الأمراض النفسية (الأعصبة) يميز بين بعض العائلات ، وهو نوع من الأعصبة لا يعانى منه أحد أعضاء الأسرة بمفرده بل الأسرة ككل ، أي يظهر فى كل أفراد الأسرة عندما تجتمع معاً (Waring , 1986) .

إن المرض النفسى الأسرى يؤدى إلى مرض أساليب التفاعل فيها وهو انعكاس له فى نفس الوقت ، وبالرغم من أن كلاً منها يؤدى إلى الآخر ، إلا أنه من الصعب تحديد أيهما السبب وأيهما النتيجة... ولكن المؤكد أن هذا التفاعل المرضى يعطل تطور الأسرة الصحيح ويعطل أداء أفرادها ويخلق أعراضاً نفسية جديدة ومواقف تصبح بعد ذلك مشاكل الأسرة (صالح حزين ، ١٩٨٩) .

ويمكن القول بأنه يكاد يتفق الباحثون فى مجال العلاج النفسى الأسرى على ضرورة إعادة النظر فى تعريف المرض النفسى ، فالعلاقات السرية هى المرض نفسه أو محوره أو موضوعه الأساسى . ولقد نمت هذه النظرة للعلاقات الأسرية نتيجة للملاحظات العلمية للرواد الأوائل وللمجددين والمحدثين فى مجال العلاج النفسى الأسرى ، وخاصة فى ميدان الفصام ، فقد وجد هؤلاء وهؤلاء أنهم عندما يعالجون الفرد المصاب بعيداً عن أسرته ، فإن أجزاء أو جوانب هامة فى المشكلة الكلية للمريض تظل غير واضحة ، ولاحظوا أن الأسرة غالباً لا تهتم كثيراً بالعلاج التى ليست طرفاً فيه ، وإنه من النادر أن يستمر التقدم الذى يحققه العلاج الفردى إذا تم ذلك العلاج بعيداً عن الأسرة ، أو إذا لم يتضمن إحداث تغيير فيها طبقاً لما يقتضيه العلاج (حامد الفقى ، ١٩٨٤) .

وتسهم المقابلة الأسرية والجلسة الأسرية فى اكتشاف أن المرض فى الأسرة وليس فى المريض نفسه ، بل قد يكون المريض أكثر أعضاء الأسرة صدقاً واعترافاً من أى فرد آخر فى الأسرة ، فقد يلعب المريض دور كبش الفداء – مثلاً – لتغطية مرض الأسرة ، فأسرة المدمن أشقياء بسبب إدمانه ، إلا أن تماسك هذه الأسرة قائما على وجود هذا المدمن ، فوجوده يجعلهم يتحدثون معاً ويذهبون معه للعلاج ويجتمعون ليفكرون بأمره ، وبالرغم من أنه ضحية لهذه الأسرة ، إلا أنه أكثر قدرة على المواجهة وإعلان مرض أسرته .

ومن ذلك نجد أنواعاً من الأسر المضطربة أو المريضة من أمثلتها ما يلى:

أ- تفكك البناء الداخلى للأسرة مع التكامل الخارجى:

كانت " ويلى " من أكثر الأعضاء المؤثرين فى المجتمع وظهر اسمها فى كثير من المؤسسات الاجتماعية فكانت تجمع وتوزع الطعام على البلدان المحتاجة وتعمل كمتطوعة فى الهلال الأحمر . وهى مديرة لمخزن به ٢٠ موظفا ، وأطفالها مشتركون فى دروس ثقافية وموسيقية ، بالإضافة إلى الأنشطة العادية بالمدارس ، كما أنها تساعدهم فى أنشطتهم عندما تجد الوقت .

يلعب الزوج نوعا من الرياضة ثلاث مرات أسبوعياً كما يذهب أسبوعياً إلى رحلات صيد مع أصدقائه من المكتب . ونادرا ما يتناول الوجبات مع أسرته فيما عدا الأجازات أو أعياد الميلاد .

يشعر كل فرد فى الأسرة بكم رضا كبير من العمل أو الأنشطة المجتمعية وأقل قدر من الرضا من الزواج أو الأسرة . ففى بعض الأوقات ينشغل الزوجان فى نفس الوقت فى اتجاهات مختلفة . وفى أوقات أخرى ينغمس أحدهما فى أنشطة خارج الأسرة رغم اعتراض الطرف الآخر .

ومع الوقت تزداد المسافة بين الزوجين ولا يشتركان فى أى اهتمامات ، وفى ذلك الوقت قد يعى أحدهما بحدوث تغيرات دون أن يعرف كيف يحل الوضع . (Mayholl & Norgard , 1983)

ب- الأسرة المتداخلة:

إذا كانت العلاقات الأسرية بين الالتصاق (الاقتراب) والابتعاد ، فإنه في مراحل الالتصاق العاطفى تظهر الأنظمة النفسية الداخلية لأعضاء الأسرة ارتباطاً وثيقاً لدرجة أن التميز بين العضو وبين الآخر يكون مستحيلاً ، فنجد اتحاداً فى وظائف الأنا بحيث يمكن لأحد أعضاء الأسرة أن يعرف أفكار ومشاعر وأحلام فرد آخر ، كما لأحد أعضاء الأسرة أن يصبح مريضاً جسدياً كرد فعل انفعالى لعضو آخر ، ويمكن أن تكون تفاصيل القلق النفسى فى أحد أعضاء الأسرة هى مرآة كاملة لفرد آخر ، ويمكن لجزء من " المرض النفسى " أن يكون فى عضو بالأسرة ويكون الجزء المكمل له فى عضو آخر بها ، وهكذا تتكامل عوامل القوة أو الضعف فى الأسرة الواحدة ، مما يوضح مفهوم الأسرة كوحدة مرض The family as the unit of illness (Boszormeni – Nagi , 1956) .

ويشير مصطلح الأسرة المتداخلة Enmeshment family إلى عدم وجود فروق واضحة بين الأفراد (الأنظمة الفرعية) فى الأسرة ، فسلوك أحد أعضاء الأسرة يعدى (ينتشر العدوى) كل عضو آخر فى الأسرة بدلاً من أن يظل محدداً فى الفرد الذى بدأ منه ، فالحماية الزائدة أو الانشغال الزائد مع الطفل يؤثر بدوره على علاقة كل من الطفل والوالدين بالأعضاء الآخرين فى الأسرة ، فهى أسر غير واضحة المعالم ولا يوجد فروق كبيرة بين الأفراد كما يتضح من الإجابات المتشابهة لأعضاء الأسرة المختلفين حين يكمل كل منهم حديث الآخر ولا يستطيعون تكوين صورة واضحة عن مشاعرهم .

جـ- الأسرة المفككة :

هى التى لها حدود جامدة غير سليمة بين أعضائها ، كما أن الاختلافات فى سلوك أعضاء الأسرة لا تؤثر فى أعضاء الأسرة الآخرين ، فعلى سبيل المثال لا ينتبه الوالدان إلى سرقة الطفل لبعض النقود لشراء طعام ، أو يتضح من نقص قيام الوالدين بوظائفهما حيث يتركون الأطفال الصغار دون إرشاد أو عناية (Gerson

Barsky , 1979 &) ، فبرغم أن أفراد الأسرة يعيشون معاً إلا أنها أسرة مفككة داخلياً . وقد يصل ذلك إلى درجة يشعر فيها الطفل بالاستقلال المتطرف أى أن يدرك الطفل أن والده (الأب أو الأم) يعطيه حرية كاملة لكى يفعل ما يريد وأن يتركه يلبس بالطريقة التى تعجبه وأن يسمح له بالخروج كما يريد ، وأنه لا يهتم بموعد عودته إلى البيت ، فى حين أن الاستقلال قد يكون إيجابياً ، ففى بعض الأحيان نجد أن الاحتفاظ بالبعد عن الآخرين قد يساعد على تطوير التفكير المستقل والإحساس بالاعتماد على النفس والثقة والذى قد يؤدى إلى التكيف واعتناق أنماط مؤثرة ومفيدة فى التفاعل داخل الأسرة وفى الحياة بشكل عام (صالح حزين، ١٩٩٥) .

د- الأسرة المسيئة :

هى الأسرة التى يتعرض فيها الأطفال إلى سوء المعاملة البدنية (الضرب المبرح أو غير من الإيذاء البدنى الشديد المتكرر) من عضو أو أكثر من أعضاء الأسرة . ويشيع فى هذه الأسر اضطراب التواصل بين الوالدين – سواء تواصل المشاعر أو تواصل الأفكار – مما يؤدى إلى علاقات أسرية غير مشبعة . كما أن قمع التعبير عن الأفكار والمشاعر الغضابة والمحبطة وابتعاد الزوجين كل عن الآخر – يزيد من الصراعات داخل الأسرة . وغالباً ما يتم التنفيس عن هذه المشاعر العدائية بالإساءة البدنية للأطفال ، مع ملاحظة أن الطفل قد يلعب أدواراً مختلفة داخل أسرته تجعله يتعرض لإساءة المعاملة كدور المستفز مثلاً (داليا مؤمن ، ١٩٩٧) ، ويكون لإساءة معاملة الطفل آثارا سيئة عليه فيظهر عليهم أعراض الاكتئاب وينخفض تقدير الذات والانسحاب والوسواس القهرى وفرط النشاط الحركى والعدوانية وغيرها (بدرية أحمد ، ١٩٩٤ والسيد رفاعى ، ١٩٩٤) .

هـ- الأسرة الفصامية :

يقصد بها الأسرة التى أصيب أحد أبناءها بالفصام ، وقد تبين أن المريض غالباً ما يكون "عرض" لمرض الأسرة ، وأن المرض موجود فى جميع أفراد أسرة المريض الفصامى . فمن سمات الأم ذات الابن الفصامى على سبيل المثال العصبية

والعنف والتدخل والحماية الزائدة ، بينما تتعامل مع البنت الفصامية بالقسوة والتناقض والانسحاب والغموض ، فى حين أن أب مريض الفصام يتسم بالشك والعصبية ، فى حين يتعامل مع الابنة الفصامية بالقسوة والبخل والتناقض والاعتمادية . ونجد صراعاً غير محلول بل وغير معلن بين أفراد الأسرة .

وغالباً ما تسيطر الأم فى علاقتها بالأب فى حين يظل هو خاضع . وهناك درجة من الذهانية لدى كل منهما وكلما زادت هذه الذهانية ، شعر الفصامى بوجود علاقات ذات قيد مزدوج فيشعر أنهما يوجهان إليه رسالة وعكسها فى نفس الوقت (عفاف حسن ، ١٩٩٨) .

القواعد التى تحكم الأسرة :

هى توقعات أعضاء الأسرة عن السلوك الذى يجب أو لا يجب القيام به فى موقف معين . ومن ثم تتضمن القواعد سلوكا لفظيا وغير لفظى ، فهى اتفاقات ظاهرة أو غير ظاهرة بين أعضاء الأسرة . ووظيفتها تيسير التواصل مما يسمح بتحقيق أهداف المواقف المختلفة وبعض هذه القواعد لاشعورى تماماً ، كما تتضمن القواعد التى تحكم الأسرة توقعات متبادلة طورها أعضاء الأسرة عن بعضهم البعض فى فترة تصل إلى سنوات . (Gerson and Brasky , 1979 , Jones & Gallois , 1989) .

وعلى كل عضو فى الأسرة أن يتأقلم مع القواعد التى تحكم أسرته ، وعادة ما تلجأ الأسرة فى محاولاتها لإخضاع أفرادها لأسلوبها الخاص لكى يسايروا ضوابطها ونظامها ، وتتدرج هذه من محاولات الشرح والتبرير إلى التهديد بالعقاب أو بالعقاب البدنى المباشر أو الحرمان من الحب أو التهديد بالنبذ والكراهية وما إلى ذلك . (حامد الفقى ، 1984 – Framo , 1955) .

تسلك كل أسرة وتتصرف حسب هذه القواعد والأحكام والتقاليد التحتية ، فهذه الأحكام والتقاليد تكونت بطريقة لا شعورية ، وعادة ما يكون لهذه القواعد أهداف من شأنها التسهيل والتمهيد لعملية التفاعل بين أفراد الأسرة ، وعلى ذلك فإنها تشكل نوعاً من الاتفاق والتراضى بين ما توصل إليه أعضاء الأسرة لا شعوريا من أحكام وخصوصاً الوالدين ، وفى الحقيقة أن المشكلة التى تؤدى

بالأسرة إلى طلب المساعدة والعلاج غالباً ما تكون موقفاً – أدى إلى خروج الأسرة عن أحد هذه الأحكام والتقاليد التحتية فيها مما يحدث خللاً فى التوازن داخل الأسرة . وتشمل هذه التقاليد والأحكام التحتية فى الأسرة مجالاً أو أكثر من مجالات التفاعل ، فعلى سبيل المثال قد يكون أحدها ألا يتشاجر عضوان من أعضاء الأسرة " أى كف التعبير أو عدم تبادل الوجدانات الفجة ولكن على عضو ثالث (كبش فداء (Scapegoat أن يتشاجر معهما باستمرار (التعبير المفرط للوجدانات الفجة) .

وقد تكون هناك تعليمات وأحكام أخرى مضمونها أن العضو مريض (يقوم بدور شاذ) ويجب أن تقوم الأسرة بحمايته (أى لا يسمح له إلا بممارسة قدر محدود من الاستقلالية).

وأثناء المقابلة مع الأسرة كلها قد نجد نوعاً آخر من هذه الأحكام الذى يتضمن تحديد المشكلة على أنها تتعلق بالجانب الانفعالى فى الأسرة بدرجة أكبر من ارتباطها بالجانب الأدائى الذى تدعى الأسرة أنه هو السبب فى مشاكلها (أى يتضمن التحديد الصحيح للمشكلة) لكن الأب يستجيب لذلك بعصبية شديدة ويفقد قدرته على التحكم فى انفعالاته وعدوانه (أى ظهور جوانب مرضية) فيهتز كيان الأسرة وتشعر بعدم التماسك (اختلال التوازن) . (صالح حزين ، ١٩٩٥).

التحول والتغيير:

إن المستحيل أن تبقى الأسرة ساكنة كما هى – ومن غير الممكن ألا يكبر وينمو أفراد الأسرة ، ودائماً ما يحدث التغير داخل الأسرة وداخل أعضائها ويتجاوب الأعضاء لهذا التغيير ، والأسر التى تؤدى وظائفها بشكل سوى تتقبل التغيير والضغط كجزء من الحياة ، فالأسرة السوية تسهل التغير الاجتماعى لكى تتلاءم مع حاجات المجتمع للتغيير ، وسبب ذلك أن قيام الأسرة بالتنشئة الاجتماعية تؤهل الفرد لأدوار الراشد فى المجتمع الأكبر – تبعاً لحاجات المجتمع وأهدافه .

. (Berado , 1980 and Mayholl & Norgard , 1983)

إذا كان التغير هو الشيء الطبيعي في الأسرة السوية ، فالعكس هو الشيء العادي في " الأسرة المشكلة " فنجد قوى المقاومة تظهر لدى أعضاء الأسرة نحو التغير في عضو آخر ، كما قد يساهم الشخص الضحية في المحافظة على "المرض" في الأعضاء الآخرين في الأسرة ؛ لذا يتطلب العلاج الأسري تقوية الرغبة في التغيير الجمعي ، بنفس الطريقة التي يكون فيها الدافع إلى تغيير الفرد هو أساس تقدم العلاج الفردي ، كما أن استمرار عملية الاتزان في الأسرة يعتمد على محاولات أفرادها للتغيير من سلوكهم الفردي حتى يتواءم مع سلوك باقي أعضاء الأسرة . (صالح حزين ، 1995 – Boszormenyi – Nagy & Gramo , 1965) .

ومقاومة التغير يكون نتيجة أن أفراد الأسرة المشكلة متعلقون تعلقاً شديداً بالإشباعات الطفلية التي يحصلون عليها من بعضهم البعض سواء على المستوى المتخيل أو المستوى الواقع – لذلك فهم يقاومون بشدة بشكل جماعي أي محاولة للكشف عن هذه الإشباعات أو تغييرها (صالح حزين ، ١٩٨٩) فعلى سبيل المثال نجد في الأسر التي بها مريض فصامي مقاومة التغيير بشكل واضح ، فالأم في هذه الأسر تصر وتتمسك بالدور الذي يقوم به كل فرد من أفراد العائلة حتى إذا اختلفت الظروف والمواقف التي تمر بها الأسرة ، ونجد الإصرار على أن هذه الأدوار المحددة لكل فرد هي الأفضل والأحسن في جميع الظروف والأحوال ، كما ينتابها الإحساس بالقلق الشديد وعدم الرضا إذا ظهرت بوادر تدل على أن أحد أفراد العائلة سوف يتخلى عن دوره أو سوف يستقل بذاته (صالح حزين ، ١٩٩٥).

* * *